الرَّدُّ على الوهّابيّة
في القرنِ التاسعِ عشر
- نصوصُ الغربِ الإسلاميّ نموذجًا -

شكر

لا يسعنا إلا أن نقدم شكرنا إلى كل من السيدة سامية قمرتي مديرة المكتبة الوطنية التونسية، والسيد إدريس خروز مدير المكتبة الوطنية المغربية، والإخوان العاملين في كل من إدارة المخطوطات بالمكتبة التونسية ـ لا سيما السيدين علي التيزاوي وماهر الزعاييى ـ وبالمكتبة المغربية وبالمكتبة الحسينية بالرباط.

كما لا يفوتنا أن نشكر السيد جيم ميلر مدير معهد البحوث المغاربية بتونس (CEMAT)، والسيد تور كونيهولم مدير المتحف الأمريكي بطنجة (TALM). ونشكر خصوصاً المعهد الأمريكي للدراسات المغاربية (AIMS) لتمكيننا من منحة بحث سهَّلت علينا التنقل إلى المغرب للبحث في المكتبات المغربية وجلب المخطوطات المحققة.

حقوق الطبع محفوظة

لدار الطليعة للطباعة والنشر

ص. ب ١١١٨١٣

الرمز البريدي ٩٠ ٧٢٠ ١١٠

بيروت ـ لبنان

تلفون ٠١/٣١٤٦٥٩

فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ١ ـ ٩١٦

E.mail: daraltalia55@yahoo.com

الطبعة الأولى

كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٨

الطبعة الثانية

آب (أغسطس) ٢٠١٢

حمادي الرديسي
أسماء نويرة

الرد على الوهابية في القرن التاسع عشر

- نصوص الغرب الإسلامي نموذجا -

طبعة منقحة ومزيدة

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

□ «لما استولى ابن سعود على الحرمين الشريفين بعث كتبه إلى الآفاق كالعراق والشام ومصر والمغرب يدعو الناس إلى اتباع مذهبه والتمسك بدعوته».

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

(الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى)

—

□ «ولما شاعت فتنةُ الوهابي ووردت رسالتُهُ إلى الحاضرة كتبَ هو رسالةً في الردّ عليه حيث يقول بمنع زيارة الأولياء وهدم المشاهد والزوايا وتحريم ذبائحها إلى غير ذلك مما فتن به العباد».

محمد بن عثمان السنوسي

(مسامرات الظريف بحُسن التعريف)

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من: **الرد على الوهابية في القرن التاسع عشر ـ نصوص الغرب الإسلامي نموذجاً** في مطلع عام ٢٠٠٨، ولقي الكتاب اقبالاً كبيراً مما أوجب إعادة طبعه ثانيةً. وقد أضفنا إليه جزءاً ثانياً خاصاً بالردود المشرقية صدر في عام ٢٠١٢ عن دار النشر نفسها تحت عنوان: **الرد على الوهابية: نصوص الشرق الاسلامي**، حيث اكتفينا بوضع نصوص، البعض منها محققة وأخرى مقتبسة من منشورات علمية قليلة الرواج نظراً إلى أن المقدمة العامة للجزء الأول استوفت جُلّ المسائل المطروحة للنقاش: تأريخ النصوص، عرض تاريخ الدعوة الوهابية ، رصد الردود مغرباً ومشرقاً والرهانات العقائدية. . . الخ.

ليس هذا الكتاب في العقيدة بل في علم الاجتماع الديني، وبالتحديد في علم الاجتماع التاريخي الذي يربط الخطاب بالمخاطب، والفعل الاجتماعي بالفاعل، ويُفسّر العلاقات السببية التي تعمل من ورائهما. ويستوجب هذا التمشي أن ننظر إلى المادة التاريخية بعيون معاصرة. فلا يفهم من كلمة "فرقة وهابية" ما قد يتبادر إلى الأذهان من أنها انحرافٌ عن جماعة اعتماداً على أدب الفرق و"الملل والنحل". فالفرقة مفهوم محايد من وجهة نظر علم الاجتماع. هي **أولاً** خيار، يولد الانسان في دين أو ملة، ولكن ينتسب خيارياً لفرقة. **وثانياً**، هي شعور بالانفراد. فالذي يلازم فرقة يشعر بأن اللّه اصطفاه، يحتكر الخلاص الروحي ولولاه لما بقي في "الجماعة" (أكانت كنيسة أم دين بالفطرة). **ثالثاً**، استفاء شروط الانتساب، والتي عادة ما تضيِّق من سعة الانتساب للفرقة عبر اختبار ديني صارم. فالفرقة إذن لا هي مذمومة ولا هي محمودة. وينطبق هذا المفهوم على كل مجموعة مخصوصة مهما كان حجمها تعتبر نفسها تمتلك الحقيقة الدينية.

هذا المفهوم يعيد النظر في أدب الفرق الذي بدوره ينطلق من الحديث حول افتراق الأمة الى عدد كذا من الفرق، بما فيها "الفرقة الناجية". أهل السنّة والجماعة، بدورها، فرقة جامعة ولكنها محل خصام. ولم يقع اعتماد الحديث إلا مؤخراً في "أدب الفرق". فالأشعري (ت ٣٣٠ هـ) لا يذكره في **مقالات الاسلاميين** خلافاً لمن لحقه (الشهرستاني، القاضي عبد الجبار والبغدادي... الخ).

ينطبق إذن هذا المفهوم على الوهّابية والتي ذُكرت هكذا اسمياً منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، شرقاً وغرباً، خلافاً لمن يدّعي أن الأتراك والمستشرقين هم الذين ابتدعوا هذا الوصف "الإقصائي". كل ما في الأمر هو أن الطرح الوهّابي والردّ عليه كانا مهووسين بالأدب الكلاسيكي للملل والنحل، المخيال المعرفي الوحيد لديهم. وهذا الذي يسوّغ تبرؤ الوهابيين من النسبة والردّ عليهم بأنهم خالفوا الجماعة.

هنالك أسئلة معرفية أكثر جدّية: كيف ولماذا انتقل نفس الفكر السنّي من اتهام الوهّابية بالخروج عن الجماعة الى اعتبارها في العشرينيات من القرن العشرين أحد تعبيرات "أهل السنة والجماعة" لا غير؟ وربما أكثر من ذلك "حركة اصلاح ديني" مبكرة؟ يُعزى التحول الى أزمة التقليد في نهاية القرن التاسع عشر إذ برز آنذاك حمّالة جدد للتدين، نُخبٌ علمانية لا تنتسب إجمالاً لزمرة العلماء التقليديين ولا للإسلام الشعبي الصوفي الطرقي (مثقفون وصحافيون ومغامرون وأدباء ومحامون...)، الى جانب مصلحين انتسبوا الى المؤسسة الدينية. المهمّ هو أنهم ثاروا جميعاً على التقليد ونادوا بالاجتهاد. الكل أصبح مجتهداً بعد ما كان الاجتهاد مقيّداً ومشروطاً ومضبوطاً. انحلت رابطة التقليد لتصبح الوهّابية نوعاً من الثورة على الاسلام الرسمي والسلطان الجائر بعد ما كانت متهمة بالانتساب إلى الفكر الفرقي المتزمت.

ما الذي يُفسِّر السلفية المستحدثة الآن بعدما تصورنا أنها انقبرت نهائياً؟ يُعزى رجوعها الى أزمة الحداثة. فقد كانت حركات التحرر الوطني إجمالاً تحديثية، أرادت رفع تحدي التخلف، ولكن الدولة الوطنية فشلت في مهامها التاريخية. "افترقت الجماعة" مجدداً ببروز أطياف عديدة ومتنوعة من الإسلاميين، بما فيها السلفية، تستوجب ربما اعادة كتابة "مقالات الإسلاميين" الأشعرية، كلّ يدّعي امتلاك الحقيقة ويعتبر نفسه قادراً على مواجهة تحديات الأمة، فيهم الراديكالي والمعتدل، البعض طريف والآخر لقاح وهّابي، ما يُمكن اعتباره سلفياً محافظاً، وفيهم من يُكفِّر وفيهم السلفي الجهادي... الخ.

إن لبّ المسألة ليس في "افتراق الأمة". فالتنوع ثراء ومحاولة توحيد الأمة وهمٌ وتوحيد العقيدة تزمتٌ. يكمن جوهر الخلاف في الفَرْقِ بين فِرَقِ الماضي وافتراقهم في العصر الحديث، البروتستنتية أو الهندوسية مثلاً. إن ما ميَّز الفرق الحديثة هو التزامها بالتسامح. فأي فرقة تحتكر الحقيقة الدينية لها مبدئياً مصلحة في التعايش السلمي مع الفرق الأخرى، وفي الحياد السياسي أساساً في المسائل العقائدية وإلا سقطنا في حرب الكل ضد الكل وتطويع الدولة لتصفية الخصوم وإخماد أصواتهم. وكل فرقة إسلامية

معاصرة تقترب من هذا النموذج تُعدّ فرقة حديثة. وأي فرقة تريد فرض آرائها وشريعتها وتغيير نمط حياة الآخرين وتتهمهم بالكفر والإلحاد ، وتتوعدهم بالقتل، هي فرقة تنتسب إلى عصر الملل وأهل الأهواء والنحل.

تونس، نيسان (أفريل) ٢٠١٢

حمادي الرديسي وأسماء نويرة

مقدمة

تصوروا مراسيل غريبة تتوجّه إلى مسلمين يؤدّون الفرائض، وإلى علماء يأمرون بالمعروف، وإلى ولاة يحمون الثغور، تنذرهم بأنهم ليسوا في الإسلام من شيء وتتوعّدهم بالعذاب الشديد وتهدّدهم بالحديد، إذا ما لم يمتثلوا لما حملته المراسيل من آيات بيّنات وشظايا من الأحاديث هم أدرى بمعرفتها ممن بعثها. هذا ما وقع في المغرب العربي الكبير عندما بعث سعود بن عبد العزيز (١٧٥٠ ـ ١٨١٤) مدة حكمه (١٨٠٣ ـ ١٨١٣م) برسائل إلى أهل المغرب على نمط «أسلمْ تسلمْ»، اجتراراً لسيرة الرسول الكريم، وكأنه يكتب لكفرة دار الحرب. وذلك بعد استيلائه على الحرمين الشريفين بين سنتي ١٨٠٣م (تاريخ سقوط مكة) و١٨٠٥م (تاريخ سقوط المدينة).

يحمل هذا الكتاب عنوان **الردّ على الوهابية في القرن التاسع عشر**، ويتخذ من الغرب الإسلامي نموذجاً. وهو يجمع هكذا بين العام والخاص. و**العام** هو تقديم حوصلة للردود اختزلت بالمفرد لتواتر محتواها والتي كتبت في دحض الوهابية أساساً من قبل علماء السنة شرقاً وغرباً؛ والخاص يدقّق في ملف ما نشر ويحقق ما لم ينشر مما أفاضت به أقلام علماء الغرب الإسلامي أي بالتحديد المغرب وتونس لعدم مشاركة الجزائريين في الصراع الذي دارت رحاه منذ بداية الدعوة الوهابية (ما بين ١٧٤٠ و١٧٤٥) وبناء الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥ ـ ١٨١٨) إلى نهاية القرن التاسع عشر إثر سقوط الدولة الثانية (١٨٩٠) تقريباً.

إن مادة الكتاب طريفة وطريقة البحث جدية. فإن كانت أعمال محمد بن عبد الوهاب متوافرة إلى حد التخمة، إلاّ أنها بقيت مبعثرة إلى أن جُمعت أخيراً سنة ١٩٧٧ في مؤلفات الشيخ. إلا أن حظ الردود بقي محدوداً ومهملاً لعدم تقدير البحاثة أهمية الموضوع وقلة المصادر. ولقد اختصّت بعض الكتب في تقديم ردود بلد ما على الوهابية مثل العراق أو الهند أو أدغمت الردود في ثنايا كم هائل من الدراسات السياسية لتاريخ الحركة الوهابية أو مدح السيرة الذاتية لمحمد بن عبد الوهاب. كما ضُمّنت الردود في ثنايا ما سُمي من طرف البحّاثة الموالين للدعوة بتأثير وانتشار دعوة ابن عبد الوهاب على الجزيرة العربية وأطرافها.

وهذا الكتاب هو أول دراسة تجمع على حد علمنا ردوداً متفرقة، البعض منها

نشر، ولكن غير متوافر أو نفد، والبعض الآخر لا يزال في شكل مخطوطات مبعثرة في مكتبات عربية وأجنبية. ولقد آلينا على أنفسنا اقتناء أكثر ما يمكن من الردود من مكتبات عربية وأجنبية (ألمانيا وأميركا تحديداً)، فضلاً عن أهم ما صدر من كتب وأدب الرحالة ومقالات حول الموضوع في أربع لغات (عربية، إنكليزية، ألمانية وفرنسية). وهو أول كتاب يمسح جل الردود في ما يناهز قرناً ونصف القرن في الشرق العربي (السعودية، اليمن، العراق) وآسيا (الهند)، فضلاً عن إعادة التدقيق في ما نشر وتحقيق ما لم يُنشر من ردود الغرب الإسلامي (المغرب وتونس)، مع العلم أن مصر وتركيا اكتفتا بالردّ العسكري على توسع الدعوة الوهابية خلال القرن التاسع عشر بإسقاط الدولة الأولى (١٨١٨) والمتابعة العسكرية اللاحقة وتطويقها خلال الدولة الثانية (١٨٢٣ ـ ١٨٩٠). ولم تدخل مصر، عبر علماء الأزهر، حلبة الصراع الفقهي إلا في بداية القرن العشرين، في حين أن الشيعة اكتفت، في حدود مجال البحث، بردٍّ واحد سنة ١٧٩٥، ادغم في البحث، قبل أن تتصدر قائمة المعارضين في الثلاثينات من القرن العشرين إثر الغارات المتكررة على كربلاء وتضييق الخناق على الشيعة من طرف الدولة السعودية الثالثة الناشئة (١٩٢٦ ـ ١٩٣٢).

وينتسب هذا الكتاب إلى مجال تاريخ الأفكار والنظرية السياسية وعلم الاجتماع الديني. يستقي من المنهج الأول التثبت في فيلولوجية النصوص (بين متقدم زمنياً ومتأخر وأصلي ومنحول). ويهتمّ بتاريخية الأفكار بوضعها في سياقها وانتسابها إلى نفس النسق واعتبار التاريخ إشكالاً يُحلّ لغزه عبر حلول قد تختلف أو تتشابه بين الأطراف المتنازعة عوضاً عن سرد الحقبة الواحدة تلو الأخرى. ويعتمد النظرية السياسية لفهم منطوق التصور وتناسقه وإضفاء عقلانية ما على الأطروحات مهما كان شططها وتطرفها بما فيها أطروحة الوهابية و"أهل السنّة والجماعة". يخرجنا هذا الإجراء من دائرة الفقه الممل حول المعقول والمنقول والاتباع والابتداع والصحيح والموضوع. ويضع المنهج الكل في إطار علم الاجتماع الديني الذي يعلمنا أن الدين كمجموعة عقائد وممارسات هدفه التمييز بين المقدس والمدنس في أشكال عديدة. ويبرز لنا بخاصة الصراع حول السلطة الدينية بين أطراف متعددة. وهؤلاء الحاملون يُسمّيهم ماكس ڤيبر Träger، أي الروح أو النفس الديني من أجل احتكار الكاريزما (الهالة) الدينية والتحدث كل بمفرده باسم الدين والاستقامة.

وبالمحصلة، فالسؤال التاريخي هو: ما هي أسباب ظهور حركة تطرح مجدداً مفهوم الإسلام والإيمان والكفر والجهاد، وما كان رد علماء السنّة؟ والسؤال النظري: ما هي الرهانات العقائدية وما هي عقلانية أطروحات تدور في فلك التكفير والتكفير المضاد؟ وسؤال علم الاجتماع الديني: ما هي الأطراف الدينية التقليدية والمجددة،

الطائعة والثائرة باسم الدين؟ هذه أسئلة يجيب عنها الكتاب عبر دراسة ميدانية تتجاوز الثرثرة حول تسامح الإسلام في مقابل تبريره للعنف متسلِّحاً الواحد ضد الآخر بترسانة من آيات قرآنية وبراهين من سيرة الرسول وانتقاء أحاديث تبريرية.

ظهرت الحركة الوهابية كما هو معلوم أولاً في نجد ما بين العيينة (١٧٤٠) والدرعية (١٧٤٥) على أساس ميثاق بين مؤسّس الحركة محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) ومحمد بن سعود (ت ١٧٦٥) يدعو إلى التوحيد وينادي بجهاد ما سُمي بأهل الضلالة والزيغ والردة. وانتشرت بالسيف والجدال الحركي مع المناوئين وإرسال البعثات والرسائل إلى أطراف الجزيرة وغيرها. ثم استولوا على الحجاز، مما دفع الباب العالي إلى مطالبة الخديوي محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٥) بالقضاء على "الفتنة". وهو ما قام به ابنه إبراهيم سنة ١٨١٨. وكان للشرق العربي طبعاً أولوية الردود في تلك الأثناء. فنحن أمام كم هائل من الطعون في سلامة الدعوة وانتسابها إلى "أهل السنّة والجماعة"، بدأتْ في نجد والإحساء والحجاز، والشيخ ابن عبد الوهاب لا يزال على قيد الحياة، وانتشرت إلى اليمن وبغداد ودمشق. وتواصلت الردود إلى نهاية القرن التاسع عشر قبل أن تشتعل نيرانها مجدداً في الثلاثينيات من القرن العشرين. وهذا ما قمنا به في حدود القرن التاسع عشر من رصد الردود وتتبعها في مصادرها لفهم الإشكالات النظرية المطروحة. فالوهابيون يرفضون بشدة أن تتمّ تسميتهم "فرقة"، معتبرين أنفسهم "موحدين". ولكنهم يلقبون مخالفيهم بأهل الباطل والضلالة. في المقابل تتسم جل الردود بعناوين تكاد تتماثل في "الرد على المبتدع" على نمط السجع العربي من "منح وهبية" و"طمس الوهابية" و"درر سنية"... والكل يدّعي الاستقامة والاتباع ويتمسك بالجماعة.

ولكن ما الذي يبرر انخراط علماء الغرب الإسلامي البعيد في حملة فقهية ضد حركة انحصر انتشارها وتأثيرها في شبه الجزيرة العربية وأطرافها (اليمن ومدن الخليج) وعموماً الشرق العربي (دمشق وبغداد)؟ كان السبب السياسي هو استيلاء الوهابيين على الحجاز ما بين ١٨٠٣ (سقوط مكة) و١٨٠٥ ـ ١٨٠٦ (سقوط المدينة) مما أثار حفيظة المسلمين من جراء ما أحدث من تشويش على الحجيج وفرض تصور غير مألوف لتأدية المناسك وهدم قبور وقباب. أما السبب الفقهي فهو ورود مجموع نصوص قمنا بتحقيقها سُمّيت آنذاك رسائل، تضع الغرب الإسلامي بين خيار اتباع الدعوة أو الحرب ضد «الطاغوت» و«ردة» المسلمين. وبالرغم من انبهار البعض، بمن فيهم المولى سليمان (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢)، سلطان المغرب، بمحتوى الدعوة من إسقاط سلطة الأولياء والتمسك الواجب بالتوحيد وحدوث هرج في تونس إلا أن علماء الغرب الإسلامي تصدّوا لما أسموه بدعة وخروجاً في ما لا يقل عن خمسة ردود في ما بين عامَيْ

١٨٠٣ و١٨١١، البعض منها نُشر والبعض لا يزال مخطوطاً.

اعتماداً على ما سبق تنقسم الدراسة قسمين: **القسم الأول** يُقدم الرسائل الواردة إلى الغرب الإسلامي من طرف الوهابيين ويضعها في إطارها التاريخي من رسائل مماثلة إلى المشرق، ثم يتناول الوهابية مفهوماً وانتشاراً إلى حدود سقوط الدولة الأولى (١٨١٨). ويرصد في ما بعد الردود شرقاً وغرباً. وأخيراً يتناول الرهانات العقائدية. أما **القسم الثاني** فهو مخصّص لنصوص الغرب الإسلامي نموذجاً. ويتركب مما سمي بالرسائل (ثلاثة نصوص في الجملة) من كتابات الشيخ ابن عبد الوهاب بتصرف وخمسة نصوص لعلماء تونس والمغرب الأقصى في الرد على الدعوة الوهابية. إن النصوص الوهابية التي أوردناها في هذا الكتاب هي تلك التي عثرنا عليها مخطوطة سواء في دار الكتب الوطنية التونسية أو في المكتبة الوطنية المغربية. وهذه النصوص هي «ورقة الوهابي الواردة من المشرق» و«كتاب القواعد الأربع» و«كشف الشبهات». ويوجد أيضاً في كل من المكتبتين مخطوطة لـ «كتاب التوحيد»، لكننا لم ندرجها ضمن النصوص لسببين: الأول يتمثل في أن الردود لم تذكرها بخلاف النصوص الأخرى، والثاني هو مادي يتعلق بطول هذا النص وتواتر نشره.

يوجد في المكتبة الوطنية التونسية نسختان من «ورقة الوهابي الواردة من المشرق»، إحداهما تحمل هذا العنوان ومسجّلة تحت الرقم ١٨٤١٦. وهي التي أوردناها في هذا الكتاب بعد مقارنتها بالنسخ الأخرى المخطوطة والمطبوعة. إذ توافر لدينا أربع مخطوطات، اثنتان منها مصدرهما المكتبة الوطنية التونسية والأخريان من المكتبة الوطنية المغربية. وأورد نص هذه الرسالة كل من المؤرخ التونسي ابن أبي ضياف في **الإتحاف**، وأبو القاسم الزياني في **الترجمانة الكبرى**. وكذلك فعل الباحث الألماني پروبستر Pröbster في مقال له حول الوهابية. ووقفنا على اختلافات كثيرة بين مختلف هذه النسخ. أما «كتاب القواعد الأربع» فلا نملك إلا نسخة واحدة موجودة بالمكتبة الوطنية التونسية، وهي لا تحمل عنواناً بل يبدأ النص مباشرة هكذا «اعلم رحمك الله أن الحنفية ملّة إبراهيم». وبالتمحيص تبين أنها «كتاب القواعد الأربع» لمحمد بن عبد الوهاب. فقارنا المخطوطة بالنص المنشور ضمن **مؤلّفات** الشيخ ابن عبد الوهاب. يبقى «كتاب كشف الشبهات» الذي لم نجد نسخة مخطوطة له إلا في تونس ضمن مجموع يتضمن الرسائل الوهابية إضافة إلى ردود العلماء عليها[1]. وقارنا

(١) تحمل هذه المخطوطة الرقم ٠٧٨٠٥. وقد كانت ملك أحمد بن حسين البارودي المفتي الحنفي. ثم انتقلت إلى ابن أخيه أحمد بن محمد سنة ١٨١٨ ثم اشتراها بيرم الرابع (شيخ الإسلام الحنفي وأبرز علماء الحنفية في تونس) سنة ١٨٥٣، ثم اشتراها الوزير خير الدين باشا سنة ١٨٦٢ الذي حبسها (جعلها وقفاً) في مكتبة الجامع الأعظم الزيتونة سنة ١٨٧٥. وقد كتبت مختلف النصوص الواردة في هذا المجموع بالخط نفسه حيث يبدو أن ناسخها واحد.

هذه المخطوطة التي اعتمدناها في هذا الكتاب مع النص الذي أورده ابن غنام في تاريخ نجد. فوجدنا بينهما اختلافات كثيرة.

هذا بالنسبة للرسائل. أما الردود، فقد عثرنا على نسخ عديدة منها، تتوزع بين المكتبتين التونسية والمغربية وتتمثل الردود التونسية في رسالتين:

- «رسالة في الرد على الوهابي» لأبي حفص عمر بن قاسم المحجوب (ت ١٨٠٧).
- «المنح الإلهية في الرد على الوهابية» لإسماعيل التميمي (١٧٦٥ - ١٨٣٢).

فوجدنا في المكتبة التونسية اثنتي عشرة نسخة من «رسالة في الرد على الوهابي» لأبي حفص عمر ابن القاسم المحجوب، ووجدنا منها أربع نسخ في المكتبة المغربية. ولا نملك أي معلومات حول كيفية وصول هذه الرسالة إلى المغرب الأقصى ولا حول زمن وصولها إلا ما ذكره الزياني، في **الترجمانة الكبرى** حيث يقول: «وبعد أن توجهت الرسالة مع ركب الحاج وردت نسخة من جواب أهل تونس لسعود الوهبي من إملاء قاضيها أبي حفص ابن مفتيها أبي الفضل قاسم المحجوب الحسني». ويقصد الزياني بـ "ركب الحاج" وفد الحجيج الذي أرسله المولى سليمان تحت إمرة ابنه إبراهيم. وكان ذلك سنة ١٨١١. وبالتالي يكون زمن وصول نصّ المحجوب إلى المغرب بعد هذا التاريخ. وخلافاً لرسالة المحجوب، لا يوجد أي نسخة من رسالة إسماعيل التميمي «المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية» في المكتبة المغربية رغم العلاقات التي تربط هذا العالم التونسي بنظرائه المغاربة وبأهل فاس. فقد كان يستفتى من حاضرة فاس وله مع علمائها مراسلات. ويوجد من هذا النصّ ثلاث نسخ في المكتبة التونسية، إحداها غير تامة. وقد اعتمدنا في هذا الكتاب النسخة التي تحمل الرقم ٠٧٨٠٥، لأن تاريخ هذه النسخة يعود إلى عام ١٨١٠، وهي بالتالي الأقرب إلى الفترة المدروسة من جهة، ولأن النسختين الأخريين لا تحملان تاريخاً، فضلاً عن أن إحداهما غير تامة. ونشير في هذا الصدد إلى أن رسالتي المحجوب والتميمي قد نُشرتا سنة ١٩١٠.

فيما يتعلق بالردود المغربية، وهي أربعة:

- «الرد على الوهابيين» للطيب بن كيران (١٧٥٨ - ١٨١٢).
- «رسالة في الرد على مبتدعة أهل البدو وناحية الشرق» لمؤلف مجهول (قبل ١٨١١).
- «رسالة المولى سليمان إلى سعود» من وضع الطيب بن كيران (١٨١١).
- قصيدة حمدون بن الحاج (ت ١٨١٧).

نشير إلى انه يوجد من رسالة «الرد على الوهابيين» للطيب بن كيران ثلاث نسخ في المكتبة المغربية، اثنتان منها تحملان نفس العنوان، والثالثة عنواناً مختلفاً هو

«تزييف أباطيل مبتدعة أهل المشرق»، وهي منسوبة إلى مؤلف مجهول. إلا أنه بالتثبت من النصّ تبيّن أنها رسالة الطيب بن كيران. ويعطي كل من خير الدين الزركلي والمستشرق بروكلمان عنوانين مختلفين. ففي معرض ترجمة ابن كيران، يذكر الزركلي أنه كتب رسالة في الرد على الوهابيين تحمل عنوان «رسالة في دفع وصمة الشرك عن جمهور مسلمي العصر». بينما يعطي بروكلمان العنوان التالي في معرض حديثه عن النسخة الموجودة في مكتبة جامع الزيتونة «رسالة في دفع عن جمهور المسلمين وصمة الشرك». أما النسخة الموجودة في المكتبة التونسية فلا تحمل أي عنوان، بل تمّ الاكتفاء بالقول إنها «رسالة في الرد عليه» إشارة إلى "الوهابي". وإن كنا لا نملك معلومات صريحة حول كيفية وصولها إلى تونس، فإننا نعرف أن النصّ الموجود في تونس تم نسخه سنة ١٨٠٨. وقد أوردنا في هذا الكتاب تلك النسخة بالذات لأنها النسخة الوحيدة المؤرَّخة. وهذا التاريخ هو الأقرب إلى زمن كتابة الرسالة (حوالى ١٨٠٣)، خاصةً وأننا لا نعرف تواريخ النسخ الموجودة في المغرب. في نفس هذه الفترة التي كتب بها ابن كيران، كتب مؤلّفٌ مجهول نصّاً في الرد على الوهابية سماه «رسالة في الرد على مبتدعة أهل البدو وناحية المشرق». لا نملك منها إلا نسخة واحدة وجدناها في المكتبة المغربية فأوردناها من دون مقارنة. وكذلك كان الشأن بالنسبة لنصّ رسالة المولى سليمان إلى سعود وقصيدة حمدون بن الحاج حيث لم نعثر إلاّ على نسخة واحدة من كل نصّ. كما عثرنا على نص رسالة المولى سليمان في المكتبة الحسينية بالرباط، وهي من نسخ تلميذ الشيخ الطيب بن كيران، وبالتالي فهي أقرب ما يكون إلى تاريخ الفترة المدروسة. أما القصيدة فهي موجودة في المكتبة الوطنية بالرباط.

إن الهدف من وراء هذه الدراسة هو عبرة لمن يعتبر في الحاضر المرير من تناول حركات إسلامية راديكالية وسلفية جهادية للفكر الإقصائي والمتطرف نفسه من تكفير المسلمين وواجب محاربتهم فضلاً عن التحقيق التاريخي لحقبة من تاريخ الأفكار السياسية لم تجد حظها من الدراسة الشافية. وإن كان ملف الحركات الإسلامية مدروساً ومعروفاً إلا أن ملف امتزاج السلفية بالجهاد وتلقيح الوهابية للحركات المتطرفة لا يزال مفتوحاً. يحدث هذا بعد أن أفل نجم الوهابية وأصبحت جزءاً من المنظومة التقليدية وكأنها فوّضت الجهاد لغيرها ممن تأثر بمقولاتها مباشرة أو بالصدفة. وعموماً يؤكد هذا الكتاب على فشل الفكر السني المتمثّل بالعلماء الرسميين. فهؤلاء فقدوا من جهةٍ الكاريزما الدينية التقليدية التي تحلّى بها نظراؤهم في الردّ على الوهابية، ومن جهةٍ أخرى، اتسموا بالكسل، يرددون مقولات الأسلاف نفسها من تكفير مضاد للخوارج الجُدد وإقصاء الفرق الضالة المضِلّة.

القسم الأول

الدراسة

الردّ على الوهابية في العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً في القرن التاسع عشر

الفصل الأول
رسائل "أسلمْ تسلمْ"

ظهرت الدعوة الوهابية في المشرق في أواسط القرن الثامن عشر في حدود سنة ١٧٤٥م. وسبق لها أن وحّدت نجد وأطرافها على يد محمد بن سعود (ت ١٧٦٥) وابنه عبد العزيز (١٧٢١ ـ ١٨٠٣) أثناء فترة حكمه (١٧٦٥ ـ ١٨٠٣). ولن يذيع صيتها في المغرب الأقصى وتونس إلا في بداية القرن التاسع عشر ميلادي الموافق للقرن الثالث عشر هجري، فترة حكم سعود بن عبد العزيز بعد أن افتك الحجاز قُبلة المسلمين. وكان ذلك ما بين عامي ١٨٠٣ و١٨١١ في عهد حمودة باشا الحسيني (مدة حكمه ١٧٨٢ ـ ١٨١٤) في تونس وعهد السلطان العلوي المولى سليمان (مدة حكمه ١٧٩٢ ـ ١٨٢٠) في المغرب الأقصى. بينما بقيت الجزائر في صمت غريب. وكان من الطبيعي أن يُحدث الاستيلاء على مكة والمدينة وما صاحبه من أحداث شاذة عن التقاليد المعمول بها آنذاك من طرف أناس ذوي أصول بدوية، لا ينتسبون إلى البيت الشريف ويكنّون العداء للسلطة العثمانية ويدّعون تلقين دروس في الإسلام الحقّ، ضجةً منقطعة النظير لا تقلّ خطورتها عن سرقة القرامطة الحجر الأسود في القرن التاسع ميلادي. وكان من المنتظر أن يشعر العلماء المتمرّسون في أصول الفقه بالإهانة ويرشّحوا أنفسهم أو بتكليف من أولي الأمر للردّ الحازم على مسودات ما أسموه بدعة وضلالاً وخروجاً عن الجماعة.

وقبل الخوض في مختلف هذه الردود لا بد أولاً أن نفحص مختلف النصوص الوهابية التي جابت العالم الإسلامي شرقاً وغرباً ونتبيّن ظروف وصولها وتناقلها.

I ـ الرسائل الوهابية الواردة على الغرب الإسلامي

لنبدأ أولاً بالتساؤل حول مصدر ورود خبر الوهابية في المغرب العربي الكبير وتحديد جهتي إصدار الرسائل وتلقّيها وتواريخها. لقد لعب الحجّاج المغاربة

والتونسيون دوراً مهماً في نقل أخبار الحركة الوهابية من المشرق إلى المغرب، سواء برواية ما شاهدوه من أحداث أو بجلب نصوص مكتوبة بعد الاستيلاء على الحرمين. كما استغل الوهابيون موسم الحج لنشر دعوتهم بين الحجّاج من مختلف أقطار العالم الإسلامي والدفاع عن عقيدتهم. إضافة إلى إرسال رسائل، وربما الدُعاة، إلى مختلف الأنحاء لتوضيح مذهبهم والدعوة إليه. ولكن لا يمكن لنا الجزم بقدوم دُعاة مُعيّنين، مما استدعى حركة نشيطة للردّ عليهم أكان ذلك في المشرق أو المغرب. ما وصل مشافهة تعلّق خاصة بما شوهد من ممارسات الوهابيين وسوء معاملتهم للحجّاج وفرض طقوس جديدة عليهم، وخصوصاً عند زيارة قبر الرسول. فهم ينهون عن زيارة قبر النبي وتقبيله والتمسح به والطواف حوله، ومثله قبور الصالحين، فيهدمون المشاهد والقباب وينهون عن قراءة **دلائل الخيرات** والدعاء بمقامات الأولياء أهل الكرامات، مما ترك انطباعاً سيئاً عن هذه الحركة لاصطدامها بالمعتقدات الشعبية[1].

أما ما وصل كتابة إلى تونس والمغرب الأقصى، فيتمثل في مجموعة من النصوص منسوبة إلى محمد بن عبد الوهاب. وهذه النصوص تسمى رسائل. وتختلف المصادر حول نوعية هذه النصوص وظروف ورودها وتاريخه ما بين عامَيْ ١٨٠٣ و١٨١١. وقد ذكر كل من الشيخ إسماعيل التميمي (١٧٦٥ ـ ١٨٣٢)، أحد أصحاب الردود التونسية، والشيخ الطيب بن كيران (١٧٥٨ ـ ١٨١٢)، أحد أصحاب الردود المغربية، أنهما اطّلعا على عدة نصوص "للوهابي"، يصرحان ببعضها ويلمحان إلى البعض الآخر. فماذا وصل من هذه النصوص إلى كل من القطرين؟ وكيف تمّ ذلك ومتى؟

١ ـ ماذا وصل من النصوص الوهابية؟

يوجد في المكتبة الوطنية التونسية ـ قسم المخطوطات ـ أربعة نصوص وهابية تحمل العناوين التالية **كشف الشبهات**، و**ورقة الوهابي الواردة من المشرق**، و**رسالة القاهرة**، ولا يحمل النص الرابع أي عنوان بل يبدأ بالعبارات التالية «اعلم رحمك الله أن الحنيفية ملّة إبراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين»[2]. في الواقع، تبيّن بعد الاطلاع على محتوى هذه المخطوطات أنها ثلاثة نصوص فقط، لأن نص **رسالة القاهرة** هو

---

(١) أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى، في أخبار المعمور براً وبحراً**، تحقيق الفيلالي عبد الكريم، الرباط، نشر وزارة الأنباء، ١٩٦٧، ص ٣٨٩؛ أبو عبد اللّه محمد بن عثمان السنوسي، **مسامرات الظريف بحسن التعريف**، تحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ت)، الجزء الأول، ص ١٩٠.

(٢) مخطوط ٠٧٨٠٥، ص ٩.

نفسه **ورقة الوهابي**، مع بعض الاختلاف الطفيف. وقد كتب بأولها بعد البسملة والصلاة على الرسول: «هذه نسخة من رسالة كان أرسلها محمد بن عبد الوهاب القائم بدعوة عبد العزيز المبتدع القائم ببدعته في نواحي الحجاز كان أرسلها للقاهرة هذا نصها الحمد لله نستعينه ونستغفره»[1]. ولا عجب في هذا التماثل بين النصّين باعتبار أنهما نسختان من نص واحد هو **رسالة إلى أهل المغرب** الذي سنتعرض له لاحقاً. ويبدو أنها أرسلت إلى مصر في إطار نشر الدعوة الوهابية، وقد تكون وصلت إلى تونس عن طريق الحجاج أو عن طريق طالبي العلم التونسيين القاصدين جامع الأزهر.

أما الرسالة التي لا تحمل عنواناً، فقد تبيّن أنها نسخة تكاد تكون مطابقة للأصل لأحد مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب عنوانها «كتاب القواعد الأربع»، والتي تبدأ هكذا بعد البسملة «اعلم أرشد الله لطاعته أن الحنفية ملّة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصاً للدين»[2]. ولربما سميت "رسالة" لقصر الكتاب الذي لا يتجاوز الثلاث صفحات كما هو شأن معظم أعمال ابن عبد الوهاب التي تنتسب إلى مناشير الشغب أكثر من انتسابها إلى الأعمال الفقهية الجادة[3].

ولـ **كشف الشبهات** و**ورقة الوهابي** أهمية مركزية لأنهما كانا محل اهتمام وتركيز العلماء التونسيين والمغاربة الذين تولوا الرد على الدعوة الوهابية. فمن المؤكد أنهم اطلعوا عليها وكذلك فعل أولو الأمر. وقد أشاروا إليهما في معرض ردودهم سواء بالتصريح مثلما فعل العالم التونسي إسماعيل التميمي، أو بالتلميح مثلما فعل العالِمان المغربيان الطيب بن كيران وأحمد بن عبد السلام البناني، فسمّوا الأولى بالطويلة والثانية بالقصيرة.

تحمل، إذن، الرسالة الطويلة المشار إليها عنوان **كشف الشبهات**، وهي من تأليف الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه الذي أعطاها هذا العنوان. ولكنها ليست برسالة بالمعنى الخاص للكلمة، أي أنها لا تنتسب إلى ما سيُعرف في القرن العشرين بالرسائل الشخصية لابن عبد الوهاب، بل هي «رسالة عامة للمسلمين جواباً لكثير من شبههم التي أدلوا بها» كما يقول المؤرخ ابن غنام (ت ١٨١٠م)، أول مصدر تاريخي للدعوة وأول ناشر لـ **كشف الشبهات** ضمن القسم الرابع لحولياته المعروفة **بتاريخ**

---

(١) مخطوط رقم ٠٧٨٠٥، ص ١١.

(٢) نشر "كتاب القواعد الأربع" ضمن **مؤلفات محمد بن عبد الوهاب الكاملة**، نشر جامعة الإمام بن سعود الإسلامية بمناسبة أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ١٩٧٧، ص ١٩٧ ـ ٢٠٢.

(٣) قارن بين المخطوط و"القواعد الأربع" ضمن **مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب**، القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية، المرجع السابق، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢.

نجد[1]. و**كشف الشبهات** هي تقديم سجالي لمبادئ الدعوة رداً على انتقادات وُجّهت لابن عبد الوهاب حول تكفير الناس. ومن الناحية التاريخية، هي ثاني نص يكتبه الداعية في بداية المشوار (ما بين ١٧٤٠ و١٧٤٥م) في ما يقارب عشرين صفحة، بعد أمهات تأليفه أي **كتاب التوحيد**. ولطولها سُمّيت، من طرف المغاربة، بالرسالة الطويلة. وهي بالتالي لم تكن موجهة للمغاربة إطلاقاً. ومما يبرهن على أنها ليست رسالة بالمعنى الدقيق للكلمة، عدم ورودها ضمن الأعمال الكاملة لابن عبد الوهاب في الجزء الخاص بما عُرف بالرسائل الشخصية وانتسابها إلى الجزء المخصص للعقيدة والآداب تحت عنوان «كتاب كشف الشبهات»[2]. وقد أشار الشيخ إسماعيل التميمي (١٧٦٥م ـ ١٨٣٢)، أحد أصحاب الردود التونسية، صراحة في رسالته التي تحمل عنوان **المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية** إلى هذا النص وأنه سيقوم بالرد على ما جاء فيه. فيقول: «إذ بلغنا أنه سماها كشف الشبهات»[3]. ولكن لا يمكن تحديد كيفية وصول هذه الرسالة (الكتاب) إلى القطر التونسي[4]. والأرجح أنها وصلت عن طريق الحجاج. ولكن تُرى لماذا لم تقع الإشارة إلى **كتاب التوحيد** من قبل أصحاب الردود أو المؤرّخين الذين تطرّقوا إلى خبر الوهابية مثل ابن أبي ضياف، رغم أننا وجدنا منه نسخاً مخطوطة في كل من المكتبتين الوطنيتين التونسية والمغربية. ونرجّح أن الدعاية الوهابية التي كانت توزع النصوص على الحجاج بعد ١٨٠٣ كانت تفضل كتاب **كشف الشبهات** لأن هذا النص يضع في متناول الجميع مخ عقيدة التوحيد في دحض ما يسمونه شبهات المشركين من اعتقادات فاسدة، علاوة على تكفير «كل من عرف التوحيد ولم يعمل به» والمنافق «شر من الكافر الخالص»[5]، في حين أن **كتاب التوحيد** أول مؤلف للشيخ وهو في حريملا بجوار أبيه قبل وفاته (١٧٤٠م). وهو طرح معقد لعامة الناس ومحتشم لفكرة التوحيد، كُتب في زمن لا يزال فيه الداعية غير قادر على تكفير العموم وغير متمكن بموقع يسمح له بذلك، كما هو الشأن ابتداءً من خروجه (١٧٤٠).

---

(١) حسين بن غنام، **تاريخ نجد**، الطبعة الأولى ١٩٦١، القسم الرابع، الرسالة الثانية، ص ٢٣٣ ـ ٢٥٢.

(٢) **مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب**، القسم الأول: العقيدة والآداب الإسلامية، م. س، ص ١٥٣ ـ ١٨١.

(٣) إسماعيل التميمي، **المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية**، المكتبة الوطنية التونسية، المخطوط رقم ٠٧٨٠٥.

(٤) يوجد منها نسخة واحدة بالمكتبة الوطنية التونسية مسجلة تحت الرقم ٠٧٨٠٥ في حين لا توجد منها أي نسخة بالمكتبة الوطنية المغربية.

(٥) حسين بن غنام، **الرسالة الثانية**، م. س، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.